سلسلة فرسان الإسلام

عبدالرحمن الغافقي

بقلم

محمد ثابت توفيق

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

عبدالرحمن الغافقي. - الرياض.

٥٥ ص، ١٧X ٢٢ سم - (سلسلة فرسان الإسلام٤٤)

ردمك: X - ٩٢٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- الغافقي، عبدالرحمن بن عبدالله، ت ١١٤هـ

٢- الفتوحات الإسلامية أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٩٥٣,٠٣٥ ٢٢/٠٩٦٣

ردمك: X - ٩٢٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/٠٩٦٣

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

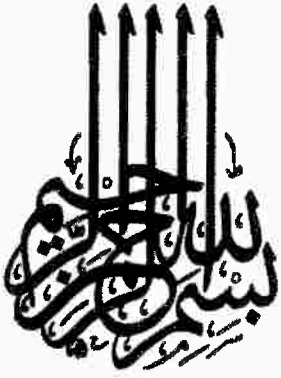
بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول
حسن اختيار

عموم رسالة الإسلام:

تعلم المسلمون الأوائل على يدي الرسول ﷺ تعاليم الإسلام، فظلوا طوال حياته بعد البعثة يأخذون عنه تفاصيل هذا الدين، وكان مما علموه أن الإسلام هو آخر الرسالات، وشريعته هي خاتمة الشرائع السماوية التي أنزلها الله إلى أهل الأرض كي ينير الطريق لهم، ويدفع الظلم عنهم، ويقاوم الشر، كلما تماديا، وانتشرا... وقد علم الصحابة الكرام جيداً ألا نبي بعد نبيهم، وأنه ﷺ قد عاش حياته كاملة من أجل نشر الإسلام.

وفاة الرسول ﷺ:

ولكن الله تعالى شاء أن يتوفى نبيه ﷺ، وقد انتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية بأكملها، وكان ﷺ قد أرسل رسائل إلى ملوك وحكام الأرض يدعوهم إلى الدخول في الإسلام، ورغم الاضطراب الذي ساد شبه الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول ﷺ وظهور المرتدين عن الإسلام ومانعي الزكاة، إلا أن خليفة المسلمين الأول: أبابكر الصديق صمم على مواصلة الطريق الذي بدأه النبي ﷺ، فأرسل الجيش الذي أعده النبي ﷺ لتأديب الروم، وهو

جيش أسامة، واجه الصديق المرتدّين، ومانعي الزكاة وصمم على موقفه إلى أن أعاد المخطئين إلى صوابهم والمرتدين إلى دينهم.

خطة محكمة:

وعلى الرغم من المعارك الكثيرة التي دخل المسلمون فيها وانتهت بانتصارهم فإنهم ما خرجوا من شبه الجزيرة العربية يريدون الحرب، بل إنهم خرجوا يريدون نشر الدين، ذلك النور الذي أنعم الله تعالى به عليهم؛ كانوا يبلغون الحكام بأنهم ما خرجوا لحربهم، وإنما يريدون دعوتهم إلى الإسلام، فإن رفضوا هذا الدين فإن عليهم أن يتركوهم كي يعرضوه على الشعوب التي يحكمونها، فمن أراد الدخول في الإسلام دخل فيه، ومن لم يرد فإن له الحرية في البقاء على دينه بشرط أن يدفع الجزية، وهي مبلغ زهيد مقابل حماية المسلمين له ولبلده.

ولكن الحكام الظلمة كانوا يغترّون بقواتهم، ويرفضون الدخول في الإسلام دون أن يفكروا فيه ويفهموا معانيه ويقارنوها بما هم عليه من الزيف والضلال، وكان عمى قلوبهم يزداد فيمنعون المسلمين من نشر تعاليم الدين بين الشعوب التي يحكمونها، وهكذا لا يكون أمام المسلمين إلا الحرب!!

فتوحات المسلمين في بلاد الروم:

كان الروم من أولئك الذين أعمى الله قلوب حكامهم عن الحق، فاستمروا على عنادهم، واستمر المسلمون في تصميمهم على نشر الدين – دين الله – فاستمرت المعارك معهم، فبعد أن أتم الله على المسلمين نصره في أجنادين سار الخليفة المسلم عمر بن الخطاب بنفسه إلى بيت المقدس وتسلم مفتاحها، بعدها سار عمرو بن العاص بجنوده إلى مصر، وبعد معارك كثيرة أتم الله النصر على يديه فاستطاع فتحها بل وفتح بعض البلاد التي تجاورها من جهة الغرب، كان ذلك في حوالي سنة (٢٢) هجرية، وقد حمل لواء فتح ما يعرف بـ (ليبيا) اليوم وما يجاورها من بلاد المغرب العربي أو إفريقية قديمًا عقبة بن نافع الذي جاهد الروم في تلك البلاد الشديدة الخطورة؛ ذلك لامتداد صحاريها وجبالها، ووعورة طرقها ومسالكها، وصعوبة طقسها ومناخها، إضافة للجند الكثيف من الرومان وغيرهم من الطغاة الرافضين لدين الله.

صرف عقبة أغلب جيشه كي يساعد جيوش المسلمين في فتح بلاد أخرى، ولم يكن البطل المسلم يعلم أن هناك يداً للغدر والحقد تتحرك ضده، فاستشهد بعد أن قاوم هو وأتباعه القلائل هؤلاء الظلمة، وبعد

استشهاده ارتد بعض أهل مدن إفريقية عن إسلامهم فسار (موسى بن نصير) إليهم وأخضع تلك البلاد من جديد تحت راية الإسلام.

ميلاد بطل:

وكانت إرادة الله تعالى أن يعوض المسلمين عن فقد قائدهم العظيم عقبة ابن نافع ببطل جديد، فما إن مرت سنوات على استشهاد القائد المسلم إلا وولد في هذه البلاد – بلاد المغرب – بطل مسلم، ففي إحدى القبائل المحيطة بمدينة القيروان، في عام (٥٠هـ) وُلد طارق بن زياد.

بطولة منذ الصغر:

أراد موسى بن نصير في عملية التطهير الشاملة التي يقوم بها في إفريقية الاعتماد على بعض قادته من أبناء المنطقة، كي يقوموا بالتحرك مع مجموعات قتالية تعرف باسم (كتائب) واختار طارقًا ليكون واحداً من سبعة عشر قائداً يقودون هذه الكتائب.

واستمرّ دور طارق في فتح إفريقية إلى جوار قائده ومولاه ابن نصير، ولكن آماله وتطلعاته كانت تتجه إلى بعيد، أبعد من مدينتي سبتة وطنجة اللتين كان موسى يخطط لدخولهما، كان طارق بن زياد يفكر بعد ذلك في عبور ما كان يسمى في ذلك الوقت ببحر الروم، وفتح بلاد أخرى، وتحقيق

نصر جديد للإسلام ونشر شمسه في أرض لم تشرق عليها من قبل... ألا وهي الأندلس.

همة عالية:

ولأن النفوس العظيمة دائمًا يتجه تفكيرها نحو المعالي، وأصحاب النفوس العالية العظيمة دائمًا يستعينون على تحقيق طموحاتهم بما يستطيعون من حيل لا تخالف مبادئهم؛ لذلك علم ابن زياد جيداً ظروف الأندلس وما فيها من اضطرابات؛ لأن القوط الذين يحكمونها منذ القرن الخامس الميلادي قد تَجَبَّروا وظلموا أهلها الأصليين، ثم إن هناك حاكمًا جديداً اسمه (لوذريق) قد صمم على حكم البلاد رغم معارضة أهلها مما دفع البلاد إلى حرب شديدة، علم طارق بشدة غرور هذا الحاكم، حتى إن أحد حكام سواحل المغرب واسمه (يوليان) عرض عليه المساعدة في عبور البحر المتوسط في سبيل تخليص أهل الأندلس من ذلك الحاكم الظالم. وكان يوليان في واقع الأمر يريد صرف المسلمين عن مدينة سبتة التي يحكمها؛ ذلك أن طارق بن زياد كان يحكم مدينة طنجة القريبة من سبتة ونشر عيونه ورجاله في كل مكان، وهكذا رأى أن الفرصة سانحة لغزو أسبانيا، فاستأذن قائده موسى بن نصير الذي استأذن بدوره الخليفة الوليد ابن عبدالملك في غزو الأندلس.

النجاح:

ولأن التخطيط الصحيح ينبغي أن يتبعه النجاح، فقد كان التوفيق من نصيب جيش المسلمين الذي تمكن على قلته من دخول الأندلس بسبعة آلاف جندي فقط، بعدها طلب ابن زياد المساعدة من موسى بن نصير فأرسل إليه خمسة آلاف آخرين، فصار عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفًا، وهو عدد قليل جدًا بالنسبة إلى جيش القوط الذي وصل إلى عدد يزيد على جيش المسلمين عدة مرات، ولكن متى كان المسلمون ينتصرون بعددهم؟ إنهم ينتصرون في كل مرة بإخلاصهم لدينهم، وأيضًا بأخذهم بالأسباب. ولأن أهل (غيطشة) كانوا بعيدين عن جندهم، مشغولين بمحاربة بعضهم بعضًا، وعلى رأسهم (لوذريق) الذي كان يريد أن ينفرد بالحكم لنفسه، ولأن المسلمين قد أخلصوا النية لربهم، ومضوا في طريقهم، فقد تحققت انتصاراتهم متتالية في مواجهة فريق (بنج) الذي كان أول من قاتل المسلمين في بلاد الأندلس، ثم (قرطاجنة)، ثم في المعركة الكبيرة معركة وادي لكة، وقد فرح المسلمون في جميع بلاد المغرب بهذا النصر فرحة شديدة، وانتشر الخبر في كل مكان، حتى إن الكثيرين قد عبروا البحر الأبيض المتوسط وانضموا إلى جيش طارق بن زياد الذي حقق انتصارات جديدة في أرض لم تكن للإسلام من قبل.

استمرار النجاح:

وهكذا استمرت نجاحات المسلمين في تلك البلاد، وتطلب الأمر عبور موسى بن نصير بجيشه كي ينضم إلى جيش طارق، فعبر، وشكلا معًا تعاونًا استطاعا به مواجهة جيوش القوط في نواحي الأندلس، بل لقد وصلوا إلى (غالة) المعروفة بفرنسا اليوم، ولكن الخليفة المسلم: الوليد بن عبدالملك أراد أن يستوثق من أن جنود المسلمين لا يسيرون في مجاهل الأندلس لذلك أرسل إلى موسى بن نصير، وطارق بن زياد يستدعيهما إلى دمشق عاصمة الخلافة في ذلك الوقت.

ولما كان القائدان المسلمان مشغولين في فتح جديد انتظر قليلاً تجنبًا لانسحاب جيشين من جيوش المسلمين مرة واحدة وما قد يسببه ذلك من هزيمة، إلا أنه، وبعد قليل وصلهما استدعاء آخر من الخليفة مما جعلهما يضبطان أمورهما بعد تحقيق النصر، ويسيران إليه فيقابلانه، وبعد قليل يتوفاه الله ويحكم المسلمين خليفة جديد هو سليمان بن عبدالملك، في عام (٩٥هـ).

خامس الخلفاء الراشدين:

بعد سليمان بن عبدالملك تولى خلافة المسلمين أشج بني أمية فأعد

منهجًا جديداً لحكم المسلمين عاد بهم فيه إلى عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر، وعثمان، وعلي، ذلك هو خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز الذي ما كان ينفض يديه من تراب دفن سابقه سليمان بن عبدالملك حتى سمع الأرض من حوله تهتز بشدة، فلما سأل عن سبب ذلك قيل له:

هذه مراكب الخلافة – يا أمير المؤمنين – قد أُعدت لك لتركبها.

فما كان من عمر بن عبدالعزيز إلا أن قال لهم:

نحُّوها عني – بارك الله عليكم – وقربوا لي بغلتي فإن لي فيها بلاغًا.

الفصل الثاني
إعادة ترتيب الدولة الإسلامية

قيمة الشورى:

أراد الخليفة الجديد أن يعيد ترتيب الدولة الإسلامية، وأن ينظر في أمر الحكام والولاة من جديد، فلا يبقي في مكانه منهم إلا الذي يستحق البقاء، وكان من أول الذين عيَّنهم عمر بن عبدالعزيز السمح بن مالك الخولاني، ولأنه كان يثق فيه تمام الثقة فقد ولاه حكم ولاية شديدة الأهمية من بلاد المسلمين ألا وهي الأندلس وما جاورها من بلدان حتى غالة (فرنسا اليوم) . . وبسرعة سار السمح إلى الأندلس، وبدأ يستعدّ للإقامة فيها، وبين عينيه الاقتداء بمنهج خليفة المسلمين الجديد في طلب رضا الله عزّ وجل؛ ولذلك كانت أولى مهماته هي أن يبحث عن أصحاب جدد يتبعونه، أصحاب الصدق والخير، وهو لن يصل إليهم بمفرده، فلابد من المشورة والسؤال والمتابعة؛ ولهذا راح السمح بن مالك يسأل من حوله:

أبقي في هذه الديار أحد من التابعين؟.

إنه يريد أن يبدأ عهداً جديداً، عهداً قائماً على الإيمان الشديد بالله عزّ وجل؛ لأنه يعلم أن هذه البلاد ما فتحت في البداية إلا بهذا الإيمان وهو

يريد لها أن تستمر على هذا العهد ما قدّر الله للمسلمين البقاء فيها، وفتح ما يجاورها من البلاد.

نصيحة مخلصة:

أخلص الذين حول السمح له في الجواب فقالوا: «نعم أيها الأمير. إنه ما يزال فينا التابعي الجليل (عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي)... ولم يكن السمح بن مالك يبحث عن التابعين إلا لأنه يعلم ما فيهم من الخير، التابعون هم أولئك الذين لم يروا الرسول ﷺ ربما لصغر أعمارهم، أو لغير ذلك من الأسباب، ولكنهم قابلوا وصاحبوا أصحاب رسول الله ﷺ فأخذوا عنهم القرآن الكريم والسنة المطهرة وتعاليم الإسلام السمحة العظيمة، هؤلاء هم الباقون من رائحة الصحابة العظام، وورد فيهم حديث عن النبي ﷺ يبين فضلهم فقال عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

والسمح بن مالك... الحاكم الجديد للأندلس قد علم أن في أهل الأندلس واحداً من هؤلاء التابعين الكرام؛ لذا فهو لن يفرط فيه؛ لأنه يعلم أن النصر يأتي من عند الله، بالإيمان الشديد، إيمان مثل هذا التابعي، ثم بالأخذ بأسباب النصر من عدة القتال أو عدد الرجال؛ ولذلك راح السمح

يستمع إليهم جيداً، وهم يصفون علْم التابعي الجليل (عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي) بكتاب الله، ثم بسنة الرسول ﷺ، وغير ذلك من قدراته التي أظهرها في ميادين الجهاد من قبل، فهو التابعي الذي جمع بين العلم والعمل، وهو شديد التشوق إلى الاستشهاد، شديد الزهد فيما تحتويه الدنيا من خيرات ونعم، وأخيراً أخبروه بأن عبد الرحمن الغافقي قد قابل الصحابي العظيم عبدالله بن عمر بن الخطاب وقد أخذ عنه من العلم الكثير، وعمل بما أخذ عنه من علم في حياته؛ لذلك عظُم عبدالرحمن في نفس السمح فدعاه إلى لقائه.. تم بين الرجلين العظيمين اللقاء!!

وفي هذا اللقاء لم يتردد السمح في أن يعرض عليه أمراً لا يعرضه على كثيرين، لقد عرض عليه أن يعيِّنه على بلد كبير من بلاد الأندلس، وهي مكانة يطمح إليها الكثيرون، فردَّ عليه عبدالرحمن بقوله: أيها الأمير، إنما أنا رجل من عامة الناس، ولقد وفدت إلى هذه الديار لأقف على ثغر من ثغور المسلمين، ونذرتُ نفسي لمرضاة الله عز وجل، وحملتُ سيفي لإعلاء كلمته في الأرض، وستجدني - إن شاء الله - ألزم لك من ظلك ما لزمتَ الحق، وأطوع لك من بنانك ما أطعتَ الله ورسوله من غير ولاية ولا إمارة.

إنها كلمات عظيمة تدل على إنسان مسلم يعرف حقًا الرسالة التي من

أجلها خلقه الله وجعله يسير فوق الأرض، وهي كلمات تستحق أن يكتبها التاريخ بحروف من نور فوق جبينه، فهذا الرجل يعرض عليه حاكم هذه البلاد أن يوليه بلداً كبيراً منها، فما يكون من هذا الرجل التابعي المؤمن الذي تنتظره مهام عظام إلا أن يقول بأنه رجل من عامة الناس، جاء ليرابط على ثغر من ثغور المسلمين.

هكذا عَرَّف عبدالرحمن نفسه ، ووضح الهدف الذي من أجله جاء إلى بلاد الأندلس، أما عن هدف حياته كلها فيوضحه أيضاً، ذلك لأنه قد نذر تلك الحياة، وجعلها كلها لله عز وجل يريد مرضاته، ويحمل سيفه لإعلاء كلمته في الأرض.

هذا الهدف العظيم ما اتخذه إلا لمرضاة الله عز وجل؛ لذا فإنه لا يريد مكانة ولا بلداً ولا حكماً، هو يعد الأمير بأنه سوف يجده إن شاء الله أقرب إليه من ظله، طالما أن الأمير قد التزم الحق، وسار عليه ولم يبتعد عنه، وأنه سوف يطيعه أكثر ما يطيعه أصبعه ما دام الأمير مطيعاً لله ورسوله، من غير أن يولَّى بلداً أو أن يؤمَّر على جيش.. لأنه باع نفسه من قبل لله ولا يريد غير ثواب الآخرة ولا يبتغي غير الجنة.

اطمأنت نفس أميرنا العظيم السمح بن مالك الخولاني؛ ذلك لأنه علم

أن في المسلمين هذا الرجل عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي الذي يرفض ما يسعى الآخرون إليه، يرفض الولاية، ويعلن الطاعة من أجل الدار الآخرة، وهكذا فلقد كان من إعادة ترتيب شؤون المسلمين أن يقرب السمح بن مالك الخولاني هذا الرجل المخلص إليه كي يسيرا معًا في بلاد الأندلس راغبين في نشر دين الله فيما حولها من المدن، فإذا حقق الله لهما النصر فبها ونعمت، وإلا فقد استشهدا في سبيله وما قيمة المناصب مع هذه الغايات العالية؟.

الفصل الثالث

معركة جديدة

تطلع

ومثلما اشتاقت نفس طارق بن زياد القائد المسلم من قبل إلى دخول بلاد الأندلس اشتاقت نفس السمح بن مالك الخولاني إلى فتح فرنسا كلها، وراح تطلُّع المؤمن بداخله يدفعه إلى ضمها إلى عقد الدول الإسلامية، راحت نفسه التقية تصور إليه حال الذين يقيمون في بلاد غالة وهم يتخبطون في ظلام الوثنية والشرك، يحكمهم حكام ظلمة، يظلمونهم في الدنيا، ويجرونهم إلى النار معهم يوم القيامة، ذلك أن نور الإسلام لم يكن بلغهم بعد، ولم يعرفوا تعاليمه السامية وحقائقه الغالية، راحت نفسه التي تشجعه على الخير تصف الثواب العظيم الذي سوف يناله عند ربه إن هو أقدم على فتح هذه البلاد.

ولم يكن السمح يتطلع إلى فتح بلاد غالة فحسب، بل كانت أمنياته تمتد إلى أن يأخذ منها نواة لفتح دول البلقان التي هي اليوم شبه جزيرة واقعة جنوب شرق أوربا، وتقتسمها اليوم رومانيا، وألبانيا، ويوغوسلافيا، وبلغاريا، وتركيا، واليونان، وعلى اتساع دول البلقان إلا أن آمال المؤمن

داخل السمح كانت أكثر اتساعًا، إنه يريد أن يصل من دول البلقان إلى القسطنطينية.

الطريق:

رأى السمح أن الطريق إلى تحقيق النصر الكبير المرجو إنما يكون بداية بفتح مدنية «أربونة» التي تقع اليوم في جنوبي فرنسا قرب البحر المتوسط في سهل اسمه لنغودول.

رأى السمح أن قيمة مدينة أربونة قيمة كبيرة؛ ذلك أنها كانت من أكبر المدن الفرنسية التي تجاور بلاد الأندلس وهي مفتاح فرنسا الكبرى، كما أن المسلمين كلما نزلوا من جبال البرنية، وهي جبال بين فرنسا وبلاد الأندلس «أسبانيا» اليوم وجدوا أربونة قائمة أمامهم، تمنع خيولهم من أن يعبروها فلا يستطيعون فتح بلاد غالة.

المعركة:

وبالفعل سار السمح بجيشه إلى أربونة، فحاصرها، وأخذ يفعل كما كانت جيوش المسلمين تفعل منذ بداية الفتوحات، لقد أخذ يعرض على أهلها أحد خيارين: أولهما: الدخول في الإسلام، والاستماع إلى صوت الحق عز وجل، والثاني: دفع الجزية مقابل أن يبقوا على عقيدتهم، وأن يحمي المسلمون بلدهم، فلا يتعرض لهم أحدٌ بشر، ولكن أهل أربونة

رفضوا الخيارين، فلم يكن غير الحرب أمام السمح، الذي أخذ يهاجمهم بجيشه هجمة وراء الأخرى، يرميهم بقذائف آلاته الحربية «المنجنيق» حتى سقطت المدينة الحصينة في أيدي المسلمين بعد أربعة أسابيع من حصارها.

إلى تُولُوز:

لم يكن أمام السمح وقت للراحة؛ لذلك أسرع بجيشه الكبير إلى مدينة جديدة، مدينة تُولُوز عاصمة مقاطعة السُحت نْيَة، فعرض على أهلها مثلما عرض على أهل مدينة أربونة من قبل إما الدخول في الإسلام وإما أن يدفعوا الجزية نظير دفاع المسلمين عن بلدهم وبقائهم على دينهم، ودون أن يشتركوا هم في الدفاع عنها إن شاؤوا فلم يوافق أهلها على أحد الخيارين، فلم يكن أمام السمح إلا أن يحاصرهم ويقذفهم بالمنجنيق، وبالفعل أوشكت المدينة القوية أن تسقط بين يديه لولا...

إرادة الله:

إن الله كان قد قدر أمرًا، فلما أصبح النصر قريبًا جدًا من جيش المسلمين أسرع حاكم أكتانية يرسل إلى جميع ملوك وأمراء أوربا يحذرهم من المسلمين، ولم يذكر لهم بالطبع أنهم جاؤوا كي ينشروا الإسلام في بلادهم، وإنما أرسل رسله إلى أنحاء البلاد كلها تخبرهم بأن المسلمين إنما يريدون

التمتع بخير بلادهم، وسبي نسائهم، وجعل رجالها عبيداً لديهم، لم يخبرهم برغبة المسلمين في نشر الإسلام دونما حرب أو قتال، وأنهم قد عرضوا عليهم في البداية الدخول في دين الله، أو دفع الجزية مقابل أن يظلوا على حالهم أو ديانتهم ويحميهم المسلمون.

لم تذكر رسل دوق أكتانية شيئًا من ذلك، بل قلبوا الأمر تمامًا، أما حكام أوربا فقد أرسلوا جيشًا كبيراً لقتال المسلمين، حتى إن كتاب التاريخ من الغربيين يقولون: إنه لم يبق شعب في أوربا كلها إلا وقد أرسل بأشد مقاتليه قوة، وأكثرهم عدداً لمحاربة المسلمين.

معركة قاسية:

وقد بلغ من كثرة الجيش وكثرة عدده وعنف حركته أن الغبار والأتربة المتطايرة من تحت قدميه قد حجبت ومنعت عين الشمس عن منطقة الرون، وهي التي تضم نهراً في إنجلترا وفرنسا يمتد بطول (٨١٢) كيلو متراً وهو من أغزر أنهار فرنسا، واقترب الجيشان، جيش المسلمين وجيش أوربة كلها الضخم الجرار، رغم ذلك لم ييأس السمح وإنما استعد للدفاع عن دينه، وللدخول في المعركة التي لم تعرف أوربا لها مثيلاً، بل قيل: إن التاريخ لم يعرف لها مثيلاً من قبل، والكلام للمستشرق الفرنسي رينون، وعندما

التقى الجيشان خُيل للناس أن الجبال الشديدة القوة، الشامخة الطول تحارب الجبال التي تماثلها... رغم ذلك ما إن كان السمح يظهر أمام جنود عدوه في مكان من أماكن المعركة حتى يضعف من قوتهم ويدفع جنود المسلمين لقتالهم بضراوة وقوة!! وكان من نتيجة هذه المعركة استشهاد قائدها المسلم السمح بن مالك الخولاني رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

الفصل الرابع
رحمة من عند الله

البطل:

أدركت المسلمين الذين كادوا أن يُبادوا جميعًا في ميدان المعركة رحمة من عند الله تعالى، وهكذا فما إن اشتدت الظلمة إلا وأرسل الله بدرًا يذهبها، ولقد ذهبت ظلمة معركة تولُوز لما أذن الله تعالى للبطل العظيم والمؤمن المخلص عبدالرحمن الغافقي بأن يتوجه نحو مكان القيادة من الجيش المسلم. لقد رفض هذا التابعي من قبل عرض الشهيد السمح بن مالك الخولاني بأن يتولى إحدى كبريات مدن الأندلس؛ ذلك لأن الأمر لم يكن أمر شدة وقتال ولكنه أمر الحكم، وهو لا يريده، أما والمسلمون في موقف شديد يتطلب بطلاً يقف في مقدمة الصفوف يفدي المسلمين بنفسه ويعرِّض نفسه للموت، ويرى في الشهادة منتهى أمله في الحياة الدنيا، فكيف يتأخر عبدالرحمن الغافقي في مثل هذا الموقف؟!!

وبالفعل استطاع الغافقي ببسالة وبشدة شجاعته في قتال العدو أن ينسحب بجيشه من الكمين بأقل الأضرار.. كان العدو قد جمع كل ما يستطيع من عدد وعدة ليفني هؤلاء المجاهدين البررة، ولكن الله سلّم وقيض

لهم بطلاً يقودهم وينسحب بهم إلى مأمنهم دون ضرر كبير... ذلك هو التابعي المجاهد الثقة عبدالرحمن الغافقي.

رأي الخليفة:

حزن الخليفة عمر بن عبدالعزيز لتلك النكسة الكبيرة التي أصابت المسلمين في فرنسا، إذ إنهم هزموا بعد انتصارات متتابعة، ومما زاد في حزنه استشهاد البطل السمح بن مالك الخولاني، ولكنه صمم على أن يستمر المسلمون في جهادهم لنصرة دين الله، ونشر نوره في أرجاء المعمورة.

القرار:

وصدر قرار الخليفة بموافقة الجند على الاختيار الحسن الذي اختاروه في وقت الشدة، حيث وافقهم على اختيارهم البطل الجديد عبدالرحمن الغافقي، بل وأصدر قراره بأن يتولى حكم الأندلس كلها، وأن يضم إليها أيضًا ما تم فتحه من أراضٍ جديدة لم تكن فتحت من قبل، وأعطاه الخليفة الحرية في العمل كما يرى لاستعادة مكانة المسلمين.

استجابة عبد الرحمن:

واستجاب عبدالرحمن الغافقي لقرار أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز، وكيف لا؟ وهو يرى المسلمين في بلاد الأندلس في موقف شديد، وعليه أن

يعيد ثقتهم بأنفسهم إليهم، وعليه أن يبدأ الإعداد لمعركة جديدة مع عدوه، عسى الله أن ينزل مدده عليهم، وإلا كان له عظيم ثواب الثبات والمحاولة.

البداية:

من كانت له مظلمة عند والٍ من الولاة، أو قاض من القضاة، أو أحد من الناس، فليرفعها إلى الأمير.

هكذا كان المنادي يطوف في البلدان التي يصل إليها عبدالرحمن الغافقي، إذ كان يتنقل بين بلدان الأندلس بنفسه، وفي كل بلد يصل إليه كان يرتفع النداء السابق، إذ إن على كل من يشعر بالظلم أن يأتي إليه، حتى وإن كان يرى أن أميرًا أو قاضيًا أو أحدًا من الناس قد ظلمه، لا فرق بين قوي وضعيف، فالأمير يريد أن يرد الحق إلى نصابه؛ ذلك لأنه علم أن الطريق الحقيقي للنصر هو طريق إصلاح النفوس من الداخل، وأن أكثر ما يصيب النفوس هو الشعور بالظلم، وهو يريد أن يحرر أهل البلاد جميعًا من هذا الشعور، مسلمين، ونصارى، ولذلك أخذ عبدالرحمن الأمير ينظر في مظالم الناس مظلمة مظلمة، حتى إنه نظر في أمر الكنائس المغتصبة وردها إلى أهلها، ورد ما قضت العهود به، وكان يهدم أيضًا ما بُني منها بالرشوة،

وهكذا كان المبدأ لديه، العدالة المطلقة بين المسلمين وبين غيرهم، ثم انتقل إلى خطوة جديدة، إذ أخذ ينظر في أمر الحكام حاكمًا.. حاكمًا، وعزل على الفور من تأكد من انحرافه، ويعين مكانه من تأكد إيمانه وحكمته، وقدرته على الإصلاح.

حـــوار:

وفي ذات مرة طلب أن يأتي إليه أحد كبار المعاهدين من أهل فرنسا، وحاوره في أمور كثيرة، حتى وصل إلى سؤال خطير:

«ما بال ملككم الأكبر «شارل» لا يتصدى في الحرب.. ولا ينصر ملوك المقاطعات علينا؟!».

إنه سؤال جدير بالاهتمام من قائد حريص على مصلحة جنده، ورفعة دينه.

فقال له صاحب المكانة الكبيرة من المعاهدين، والذي يعرف السبب:

«أيها الأمير.. إنكم وفيتم لنا بما عاهدتمونا عليه، فمن حقكم علينا أن نصدقكم القول فيما تسألوننا عنه.. إن قائدكم الكبير موسى بن نصير قد أحكم قبضته على أسبانيا كلها، ثم طمحت همته لأن يجتاز جبال البرنية التي تفصل بين ديار الأندلس، وبلادنا الجميلة. فجفل (خاف)، واتجه ملوك المقاطعات وقسسها إلى ملكنا الأعظم وقالوا له:

ما هذا الخزي الذي لصق بنا وبحفدتنا أبد الدهر أيها الملك؟ فلقد كنا نسمع بالمسلمين سماعًا.. ونخاف وثبتهم - هجومهم - علينا من جهة مشرق الشمس، وهاهم قد جاؤونا الآن من مغربها.. فاستولوا على الأندلس، وامتلكوا ما فيها من العُدَّة والعتاد، واعتلوا قمم الجبال التي تفصل بيننا وبينهم مع أن عددهم قليل، وسلاحهم هزيل، وأكثرهم لا يملك درعًا تقيه ضربات السيوف ولا جوادًا يمتطيه إلى ساحات القتال؟!

فقال لهم الملك:

لقد فكرتُ فيما طرأ على بالكم جميعًا، وأنعمتُ النظر فيه طويلاً فرأيتُ ألاَّ نتعرض لهؤلاء القوم في وثبتهم هذه، فإنهم الآن كالسيل الجارف يقتلع كل ما يعترض طريقه، ويحتمله معه، ويلقي به حيث يشاء، ووجدتُ أنهم قوم لهم عقيدة ونية تغنيان عن كثرة العدد، ووفرة العُدد.. ولهم إيمان وصدق، يقومان مقام الدروع والخيول..

ولكن أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم.. ويتخذوا لأنفسهم الدور والقصور.. ويستكثروا من الإماء والخدم.. ويتنافسوا فيما بينهم على الرئاسة؛ فعند ذلك تتمكنون منهم بأيسر السبل، وأقل الجهد.

فهم وتدبر:

وكعادة العظماء الذين يستفيدون من كل ما يقال أمامهم استمع إلى كلمات الفرنسي الذي هو من أكبر المعاهدين، حتى إذا ما انتهى منها مال برأسه حزنًا، ثم نظر إليه، وتنهد في حسرة على ما يخططه أعداء المسلمين لهم، وهم عنه غافلون، وقد يخيل إليهم أن عدوهم ليس بهذا القدر من المكر، مال عبدالرحمن الغافقي برأسه، وأصدر صوتًا عميقًا من صدره تنهد، ثم أذن للمعاهد بالانصراف، فضَّ المجلس قائلاً في حكمة:

حي على الصلاة، فقد اقترب وقتها.

لقد أحزنت كلمات المعاهد عبدالرحمن، ولكنها جعلته يقف على موقف أعداء المسلمين منهم، فهم لا يقدرون دورهم، ولا يعرفون الهدف الذي خرجوا من أجله، وهم عندما يهزمون أو يسلموا مدنهم لهم فإن هؤلاء ينتظرون انشغال المسلمين بالراحة كي يهجموا عليهم، حزن عبدالرحمن القائد المجاهد؛ لأن بعض المسلمين قد ينسون ذلك، ولأنه مؤمن شديد الإيمان بربه فلقد ردَّ ردًّا عمليًّا بأن أعلن أن ميعاد الصلاة قد اقترب؛ ولذا أنهى الجلسة، وكأنه يخبر المعاهد بأنه حريص على فروض ربه، وكذلك جنده ، ولذلك لن يتمكن أعداؤه من تحقيق خطتهم فيهم.

حسن الإعداد:

كانت نفس عبدالرحمن تتحرق شوقًا للقاء الأعداء كي يقابل أولئك الذين قتلوا القائد المسلم السمح بن مالك غدرًا، كي يشفي صدره منهم، ولكنه في الوقت نفسه يعلم أن عليه كمسلم أن يحسن الإعداد لقتال عدوه، يحسن إعداد قوته، وخيله كي يكون قادرًا على مواجهة أعدائه في ميدان المعركة، لقد تدبر آيات الجهاد جيدًا، ويعرف أن الله تعالى قد خاطب المسلمين بقوله: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾. ولذلك انتظر عبدالرحمن عامين كاملين، وهو يجهز للمعركة، لم يقصر فيهما في إعداد السلاح، وكان بعيد النظر في أماكن وجود جند المسلمين في الجبال التي تطل على أعدائه، فيعيد تحصين ما يراه ضعيفًا من تلك الحصون، وكذلك يبني حصونًا جديدة، ويقيم معابر وقناطر جديدة، ويعيد ترميم القديم منها ليسهل على جَيشه الطريق كي يعبروا عليها فوق الماء، وبذلك يختصرون الطريق.

قنطرة قرطبة:

وكان من أعظم ما بناه قنطرة قرطبة عاصمة الأندلس، وقد أمر ببنائها على نهر قرطبة العظيم كي يعبر عليها الجند، وأيضًا الناس... وكان لها

فائدة عظيمة إذ كانت تحميهم من الفيضانات الشديدة التي كانت تغرق أرضهم، وتذهب بأرواحهم، ويقال إنها تعد من عجائب الدنيا وهي ما تزال موجودة إلى الآن وطولها ثمانمائة باع والباع مقدار مد اليدين، وارتفاعها ستون باعًا، وعرضها عشرون، وبلغ عدد أقواسها ثمانية عشر قوسًا، وعدد حصونها تسعة عشر حصنًا.

وكان مما فعله القائد المسلم أيضًا أن طلب المساعدة من الأمراء في الدولة الإسلامية على اعتبار أنها مثل الجسد الواحد يساعد كل جزء فيها الآخر عندما يشعر بحاجته إليه...

مساعدة ورفض:

أما أمير إفريقية فلقد فهم معنى كلمات عبدالرحمن، وأدرك الموقف جيدًا؛ ولأنه كان رجلاً مؤمنًا، فلقد أرسل إليه في الأندلس مجموعة مختارة من جنوده، كانوا يتميزون بأنهم يتحرقون شوقًا لقتال العدو ويتلهفون على الاستشهاد.

ثم فكر عبدالرحمن في أمر آخر، لذلك أرسل إلى عثمان بن أبي نُسْعَة لا يطلب منه أن يمده بجنود، وإنما طلب منه طلبًا آخر شديد الأهمية في المعركة القادمة، إنه يريد منه أن يشاغل العدو بهجماته، فلا ينتبه إلى مسيره

بجيشه لمحاربته، ويفاجأ بهجوم جيش الأندلس عليه... طلب الغافقي هذا الطلب من عثمان بالتحديد؛ لأنه كان أمير الثغور، وهو يستطيع أن يفعل هذا بسهولة، ولكن عثمان بن أبي نُسعة لم يكن مثل أمير إفريقية، وإنما كانت نفسه مختلفة تمامًا عنه، فلقد كان يكره كل أمير مجتهد يريد أن يحقق نصرًا، إنه لم يكن يفهم تعاليم الإسلام، لقد كان يرى أن نصر عبدالرحمن على عدوّه هو تمجيد لاسمه، ولم يكن عقله يفكر جيداً، فيعلم خطورة موقف عبدالرحمن في البداية، ثم يدرك أن النصر من عند الله، وأن عبدالرحمن مثله مثل كل القادة المسلمين الأبطال، لم يخرج للقتال من أجل تحقيق شهرة، بل طاعة لأمر الله وأخذاً بأسباب النصر، وانتظاراً لحكمه وقضائه بعد ذلك.

ولأن عثمان بن أبي نُسْعَة أيضًا قد ارتبطت نفسه بابنة دوق أكتانية وكان اسمها مينين وهي شديدة الجمال، تمتاز بما تتميز به الفتيات اللاتي تربين في القصور، فلقد تعلق بها وقربها إليه وصار يستمع إلى رأيها، ولأنه بهذا الحال صار خطراً على المسلمين؛ لأن الغافقي القائد المسلم أدرك جيداً أن عثمان بن أبي نسعة سيكون مانعًا له من السير في خطته بدلاً من أن يساعده على النصر؛ لذلك فلقد أمر بأسره، فلما سار جند عبدالرحمن لتحقيق هدفهم، عاند عثمان، وهرب إلى الجبال وقاتل جند الغافقي

فاضطروا لقتله، وأسر الأميرة الحسناء، حتى إذا جاؤوا بها إلى الأمير المسلم عبدالرحمن فرآها ورأى جمالها الشديد الذي ذهب بعقل عثمان بن أبي نُسْعَة، فأشاح عنها بوجهه، لأنه نظر بعيداً عنها فهو منشغل عنها بأمور أكثر أهمية، أمور الإعداد للمعركة القادمة.

الفصل الخامس

موقف الأعداء

موقف شارل مارتل:

كان شارل مارتل يعرف جيداً أن المسلمين أهل عقيدة، كما قال هو نفسه للقسس وحكام البلاد الذين ذهبوا إليه بعد أن عبر المسلمون جبال البرتات إليهم... كان شارل مارتل يعرف أن المسلمين على حق، ولكنه كان يكابر خوفًا على ملكه، وطمعًا في الاستمرار على كرسي الحكم، يستعبد العباد وينتهب ثروات البلاد...

فأخذ يستعد بجيشه لليوم القريب، لكنه لم يكن يعرف من أيّ اتجاه سوف يهاجمه المسلمون، أما عبدالرحمن الغافقي فقد كان يعرف الاتجاه الذي سيبدأ منه المعركة جيداً، إنه سيبدأ من عند مدينة «آرل» التي تقع على ضفاف «نهر الرُّون» لموقع تلك المدينة؛ ولأن أهلها كانوا قد قبلوا مصالحة المسلمين على أن يدفعوا الجزية كاملة لهم، فلما استشهد السمح، ووقف المسلمون موقفًا صعبًا بعدها تراجع حاكم «آرل» هو وشعبه عما سبق وأبرموه من عهود ومواثيق، وأعلنوا نقضهم للصلح الذي عقدوه مع البطل الشهيد السمح بن مالك الخولاني وامتنعوا عن دفع الجزية؛ لذا كان واجبًا على عبدالرحمن الغافقي أن يؤدبهم.

اليوم المنتظر:

كان الخليفة قد أعطى عبدالرحمن كل الصلاحيات وفوضه في اتخاذ قرار بدء الحرب.. نظر القائد حوله، فرأى أنه استنفد كل وسائل الإعداد.. درَّبَ جنوده، وبثّ فيهم روح الإيمان بالله، والاعتماد عليه، إذن فليتوكل على الله وليبدأ طريق الجهاد لنشر دين الله، لينعم الناس جميعًا برحمة خالقهم ومولاهم وليتخلصوا من حكم الطواغيت الظلمة.

الهجوم:

لم يكذّب عبدالرحمن ظن الدوق شارل مارتل في قرب ميعاد المعركة، فسار بجيشه المتحمس من شمال الأندلس مسرعين نحو غايتهم، يريدون دخول فرنسا من جنوبها من فوق جبال البرنية «البرانس» آخذين بثأر السمح ابن مالك والذين استشهدوا معه مجاهدين - قبل ذلك كله - في سبيل الله!!

وكان عدد جيش المسلمين مائة ألف مجاهد، وكان خط سيره إلى مدينة «آرل».

وعندما وصل الجيش الإسلامي إلى مشارف المدينة وجد أن «أوَدَ» دوق «أكتانية» - حاكمها - قد جمع جموعًا كثيفة وزودها بالسلاح والعتاد..

كانت تخيل إليه نفسه أن في استطاعته أن يمنع جيش المسلمين من مواصلة مسيرته نحو غايته في فتح البلاد واستنقاذ العباد.

لم يمض وقت طويل حتى ابتدأت المعركة، والتقى الجيشان، أما المسلمون فإن لهم شوقًا عظيمًا لهذه المعركة، وفي نفوسهم تعطش شديد لها طيلة عامين وهم يستعدون لها...

التقى الجيشان وجهًا لوجه، ودارت معركة شديدة بينهما، أما عبدالرحمن، فقد كان يعرف جيداً أن جنود أعدائه يحاربون وفي نفوسهم الرغبة في الحفاظ على الدنيا؛ لأنهم بلا مبدأ ولا غاية، يحاربون من أجل الحياة، وهو يعرف جيداً جنوده أولئك الذين يحاربون وهم يحرصون على الموت أكثر مما يحرص عدوهم على الحياة.

اجتمع المسلمون، فصاروا جماعات مترابطة تقاتل إلى جوار بعضها على شكل كتائب، ولم يطل صبر أتباع «أُود» إذ لم يمض وقت طويل حتى كانت المعركة قد انتهت بهزيمتهم، وإعلانهم عدم قدرتهم على مواجهة أبطال جيش الإسلام، والهزيمة أحب إليهم من الموت.

نهاية معركة آرل:

وكانت نهاية معركة آرل أن استطاع المسلمون دخول المدينة حربًا هذه

المرة، بعد أن كانوا قد دخلوها صلحًا، وأخذ المسلمون من هذه المعركة مغانم كثيرة لم يستطيعوا حصرها، أما عبدالرحمن الغافقي القائد الحكيم فقد كان ينظر إلى هذه الغنائم نظرة خاصة، وفي أذنيه، كلمات شارل مارتل التي قالها للقساوسة والقواد، حينما طلبوا رأيه في كيفية مواجهة المسلمين والتصدي لهم.. كان شارل مارتل يرى أن الفرصة الوحيدة للوقوف في وجه المسلمين هي حينما ينشغل المسلمون بجمع الغنائم وبناء القصور واتخاذ الجواري، حينها فقط تعلق الدنيا بقلوبهم، وحينها فقط يمكن لجيوشه الجرارة أن تواجههم وتنتصر عليهم، وكان قائدنا البطل يخشى هذا المصير ويدعو الله أن يحفظ المسلمين ويجنبهم حب الدنيا والركون إليها.

أما الدوق «أودُ» فقد هرب بالذين بقوا على قيد الحياة من جنوده، هرب وفي ذهنه أن يجهز نفسه لمعركة جديدة مع المسلمين فهو يعرف أنهم لن يتوقفوا عند مدينة آرل، وإنما هي البداية لسلسلة جديدة من المعارك، وهو يتمنى أن يهزمهم كما هزموه.

استمرار الهجوم:

كان عبدالرحمن الغافقي واثقًا في الحق الذي يؤمن به ويعمل له ويجاهد في سبيله... وإن كان أعداؤه هم أصحاب الأرض ويملكون العدد والعتاد فإن

الله تعالى هو خالقهم وخالق أرضهم، وخالق النعم التي يتمتعون بها وهم يجحدونه ويرفضون أن يدخلوا في دينه، بل ويحاربون عباد الله الذين ما خرجوا من ديارهم إلا لاستنقاذهم من الكفر ومن الظلم.. كان قائدنا البطل يعرف أن عليه أن يجهز، ويعد العدة، ويبذل أقصى ما لديه من طاقة ومن قوة لتحقيق النصر الذي لا يجيء إلا بميعاد وقد حدده المولى عز وجل منذ القدم، وما عليه هو إلا السعي والأخذ بأسباب النصر كما أمر الله، وبعد ذلك فالله هو الفعال لما يريد.. ينصر من يشاء وقتما يشاء بأي كيفية شاء.

عبور جديد:

عبر عبدالرحمن بجيشه نهر الغارون الذي يقع في جنوبي غربي فرنسا على بعد ٦٥٠ كيلو متراً منها، وهو ينحدر من أسبانيا، وأخذت كتائب عبدالرحمن المنتظرة تتحرك داخل مقاطعة «أكتانية» يميناً وشمالاً، أما المدن والقرى فقد أخذت تتساقط وراء بعضها بكثرة بين أيدي المسلمين وأهلُها لا يملكون دفاعًا عن أنفسهم، كان هذا هو جزاء أولئك الناس الذين رفضوا رحمة ربهم ولم يسمعوا لكلمة الحق التي كان يحملها المسلمون إليهم.. أغلقوا آذانهم وقلوبهم وحاولوا إطفاء نور الله بأفواههم، فكان جزاؤهم أن سلط الله عليهم عباده المسلمين فهزموهم وسبوهم.

محاولة فاشلة:

ولأن العزم كان شديداً في قلوب المسلمين فعندما حاول دوق أكتانية أن يوقفهم، فدخل بقواته معهم في معركة شديدة القسوة، صبر المسلمون فيها كعادتهم عند بداية لقاء عدوهم، ثم لم يلبثوا أن أنزلوا به وبجيشه هزيمة عظيمة لم تكن تخطر على باله، فلقد تمزق جيشه، وترك المسلمون جنوده ما بين قتيل وجريح ومهزوم وأسير.

إلى بُوردُو:

لم يكن نصر المسلمين الأخير إلا دفعًا لهم لمواصلة خططهم، وهجوماتهم، ومشجعًا لهم كي يدخلوا في معركة أخرى مع قوى الظلم التي شاء الله أن يتصدوا لهم، بل ينتصروا عليهم حتى الآن، وكان ميعاد المعركة الجديدة التي تحرك عبدالرحمن بجنوده إليها عند مدينة بُورْدُو وهي ميناء على نهر الغارون، وهي كبرى المدن الفرنسية في ذلك الوقت، وعاصمة مقاطعة «أكتانْيَة» وهناك وجد عبدالرحمن أن أعداءه قد جمعوا قواتهم من جديد لحربه، فدخل معهم في معركة شديدة لا تقل عن المعارك السابقة، وكان الجنود الفرنسيون قد سمعوا بما حدث لأصحابهم على يد المسلمين من قبل في آرل، وبعد عبور جيش المسلمين أكتانية بدأت معركة بالغة

الشدة ودوق أكتانية وسط جنوده؛ يلهب حماسهم ويحذرهم من مصير سابقيهم ظانًا أنهم يستطيعون معاندة جيوش المسلمين التي لم تعرف الدنيا إلى قلوبهم سبيلاً، ولم يتمكن حبها في نفوسهم بحيث يؤثرونها على الدار الآخرة التي أعد الله لهم فيها كل الكرامة، جزاء وفاقًا لإيمانهم وجهادهم.

وهكذا دافع الجنود الفرنسيون عن أنفسهم دفاعًا شديداً ، وكذلك كان هجوم المسلمين أشد وأعنف، وأخذت الخيول تصدر أصواتها وصهيلها العالي يكاد يصم الآذان، وأعينها تبحث عن أي منفذ لتفر وتهرب من ميدان المعركة، وبخاصة خيول الفرنسيين التي كانت أسفلهم، تتحمل ثقلهم، وتشعر بارتجاف الجندي، وهو لا يكاد يتمالك نفسه وهو يرى المسلمين يتحملون في ميدان المعركة ما لم يكن يظن أن أحداً من البشر يتحمله، لقد خيل إليهم قائدهم أن النصر سهل الحصول عليه، فقط إذا ثبتوا في هجومهم على المسلمين، ولم يكونوا يعرفون أنهم سوف يقابلون جنوداً إن هم هجموا عليهم بشدة سوف يثبتون ويتحملون، بل يخبئون لعدوهم المفاجآت.

إذ إنهم تحملوا في البداية، ثم جاء الوقت الذي تعب فيه جنود الفرنسيين فكان على المسلمين أن يهجموا بشدة، وأن يستثمروا الوقت

الذي تتحرك خيولهم فيه بخفة أكثر، فهي تعرف طريقها جيداً... الطريق الذي عودها عليه الأبطال الذين يقودونها إلى طريق النصر.

وتحقق للمسلمين النصر عند مدينة بُوردُو أيضًا، وشاء الله ألا يحرم أميرها الذي حفز الجنود على محاربة المسلمين، ألا يحرم هو الآخر من طعم الموت الذي أتى إليه مسرعًا، أسرع مما يتخيل، وعلى يد من على يد المسلمين الذين ظن أنه يستطيع مواجهتهم والتغلب عليهم.

سقوط مدن أخرى:

كان فتح مدينة بُوْردُو مفتاحًا للدخول إلى مدن فرنسية أخرى وفتحها، فقد كانت المدينة بوابة لمدن أخرى كثيرة لا تقل خطورة عنها مثل «ليون» التي تقع على ملتقى ما يُسمى بالروف والسون، وهي الآن قاعدة لمحافظة الرون، ثم مدينة «بيز انسُونُ» وكان المسلمون قد اتجهوا إلى الشرق، والمدينة تقع على نهر دو، وهي عاصمة المحافظة بنفس الاسم اليوم.

ثم اتجه الجيش الإسلامي حاملاً رايات الفتح إلى مدينة سانْسُ؛ لا يقف شيء في طريقه بعد الانتصارات التي حققها في فترة قليلة، وقد كانت مدينة سانس لا تبعد عن باريس أكثر من مائة ميل فقط.

تجمع جديد:

وكما حدث من قبل مع السمح بن مالك الخولاني حدث تمامًا مع عبدالرحمن الغافقي، فكما تجمعت أوروبة كلها على السمح بن مالك تنوي صده وقد خططت جيدًا، لذلك بعدما وصل إلى مدينة - توزلو - حدث الشيء نفسه مع عبدالرحمن الغافقي حينما واصل فتحه لمدن فرنسا، فهؤلاء الحكام أعمتهم كراسي الحكم، وأذهبت عقولهم الشهوات، فلم يعودوا يرون نور الهداية، ومشاعل الخير التي يحملها المسلمون إليهم، لأنهم يحسون بأن نور الشمس... نور الإسلام حينما يسطع في بلادهم فإنه سوف يزيلهم أنفسهم - من أماكنهم، وسوف تشعر الشعوب التي يحكمونها بالفارق بين ظلم حكامهم ونور عدالة الإسلام... كان ذلك هو ما دار في نفس شارل مارتل ودفعه إلى أن ينادي طغاة أوربا إلى أن يتجمعوا من جديد.. كان يصرخ في هؤلاء الحكام أن يهبوا لنصرته وهو يرى نصف فرنسا الجنوبي كله قد تحرر من سيطرته وصار تحت حكم المسلمين، والناس والشعب لا يعترض عليهم بل إنه يعلم مقدار الألفة والمحبة التي ستنشأ بين شعوب البلاد المفتوحة وبين المسلمين مع الوقت، وهو يخشى على بقية فرنسا أن يحدث فيها ذلك، كيف لا وهو يرى المسلمين لا يوقفهم شيء، وهو يعلم في قرارة نفسه أنهم على الحق، والفكرة التي كانت لديه، والتي

ذكرها أحد كبار المعاهدين إجابة عن سؤال القائد المسلم عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي حينما سأله – أي: عبدالرحمن – عن سبب عدم محاربة مارتل للمسلمين، حتى هذه الفكرة لم تتحقق.. فلم ينشغل المسلمون بالدنيا، ولا بالغنائم التي أخذوها من جزء كبير من فرنسا عنه ولا عن الاستمرار في فتح بلاده؛ لذلك رأى شارل مارتل أنه يلزم أن تتجمع أوربا كلها من جديد ضد المسلمين. ولذلك راح يدعو العاجز الضعيف والقادر القوي أن يتجمعوا معًا، وأن يحاربوا بالسلاح، حتى إذا سقط من أيديهم أمام شجاعة المسلمين، فإن عليهم أن يشكلوا سداً يمنع دخلوهم مزيداً من بلاد فرنسا بالنور الذي يحملونه، فإن على جيوش أوربا أن تكون سداً حتى ولو كان ذلك بصدورها وأجيادها!!

كل ذلك لأن المسلمين قد أرادوا الخير للبشرية، وساروا به حتى فرنسا تاركين أموالهم وأولادهم، وأزواجهم، وديارهم خلف ظهورهم، ولكن متى كان المسلمون يتراجعون، وهم يعلمون أنهم إنما يحاربون من أجل إحدى الحسنين: النصر أو الشهادة في سبيل الله.

استجابة سريعة:

واستجابت أوربا كلها لنداء شارل مارتل، وتوحدت جيوشها من جديد ضد الجيش الإسلامي الذي كان قد وصل إلى تُورَ بداية الجزء الآخر من مدن

فرنسا التي لم تفتح بعد، وكانت المدينة تمتاز بكثرة سكانها وقوة مبانيها، زيادة على قدمها الشديد وامتلائها بالآثار المهمة بالنسبة لأوربة كلها، ذلك أن كنيستها الفخمة الضخمة العامرة بالآثار القديمة الغالية كانت من عجائب أوربة كلها.

وقد حاول حاكم المدينة التصدي لهجوم المسلمين، وراح يحمس أهلها ويحثهم على قتال المسلمين، ويعميهم عن الحقيقة، وراح يدافع عنها بجنده ولكن هذا لم يدم طويلاً أمام استبسال المسلمين في حصارهم، فسقطت المدينة بين يدي المسلمين، وشارل مارتل غير بعيد يرى ويسمع.

ورغم أن الغافقي، وجيش المسلمين قد دخلوا المدينة بالقوة إلا أنهم لم يخربوها، ولم يقتلوا أهلها ظلمًا وعدوانًا، وإنما أثبتوا لهم صحة المعلومات التي كانوا يسمعونها عن المسلمين، وقد رأوها بالفعل أمام أعينهم، إذ إنهم أصحاب أخلاق، ومن قبله دين؛ لا يقتلون مَنْ لم يقاتلهم، ولا يتعرضون لَمَن حاربهم طالما أنه قد خفض سلاحه، وأعلن استسلامه، ولا يريدون لأهل المدينة سوى الخير والهداية.

الاستعداد للمعركة:

وكان على المسلمين أن يستعدوا لمعركة جديدة، وجاءت العشر الأواخر

من شعبان عام (١٠٤ هـ)، وتحرك الجيش الإسلامي إلى مدينة بُوَاتيه، ووقف جيش أوربا الكثير العدد ينتظر بداية المعركة، وفي نفوسهم أنها المعركة الحاسمة.

أما عن عبدالرحمن الغافقي فقد كان في ذهنه أمر آخر مع الخطة التي جهزها، لقد كان يرى الجيش الإسلامي في قمة انتصاراته العظيمة، ولكن هناك شيء لا يخفى عليه وهو القائد الذي جرب كثيراً، ورأى أخطاراً عدة، إنه يعرف أن جيشه المنتصر قد نال كثيراً من الغنائم، وصار لديه منها الكثير، نظر عبدالرحمن إلى تلك الثروة العظيمة في قلق وخوف شديدين، لقد كان يخاف على جنوده وهو لم ينس كلمات شارل مارتل التي قالها لأحد كبار المعاهدين، إنه يخاف أن تشغل هذه الغنائم نفس المسلم في ساحة القتال، أو حينما تشتد المعركة فتتوزع همته، وتقسم قوته على العدو الذي يحاربه، وعلى الغنائم التي حققها من قبل، ويريد أن تبقى معه وكاد أن يأمر جنوده بالتخلص من هذه الثروات الضخمة، ولكنه قدر أن نفوسهم لن ترتاح إلى هذا القرار؛ ولذلك لم يجد طريقًا إلا أن يجمع الغنائم في خيام خاصة بها، وجعل هذه الخيام خلف معسكر جيش المسلمين قبل بداية المعركة.

لقد كان القائد المؤمن يرى بفراسة العابد القريب من الله وبحنكة القائد المتمرس صاحب التجارب الحربية، لقد كان عبد الرحمن الغافقي يعرف تأثير الغنائم على النفوس، ولكنه كان يعرف أيضًا الاضطراب الذي قد يحدث في الجيش إن هو أمرهم بالتخلي عنها، ولذلك لم يجد حلاً سوى أن يأمر بجعلها في مكان خاص خلف الجيش.

وجاء الجيش المسلم، فوقف أمام جيش أوربا في سكون، وترقب ينتظر أن يبدأ بالهجوم، ولكن جيش أوربا الجبار كان يخاف خوفًا شديداً من جيش المسلمين، فاستمر في مكانه عدة أيام، ورأى القائد المسلم طول وقت الانتظار وأن جيش عدوه غير قادر على اتخاذ قرار البداية، وأن نفوس جنده المسلمين تغلي من الحماسة، فقرر قراراً وبدأ ينفذه.

بداية المعركة:

لقد قرر عبدالرحمن الغافقي أن يكون هو البادئ بالهجوم، معتمداً على ربه، واثقًا فيه، ثم على حماسة جنده، وهكذا هجم القائد المسلم بفرسانه على صفوف جيش أوربا هجوم الأسود القوية، ولكن جيش الأعداء صمد أمام تلك الهجمة صمود الجبال الراسخة، وراح المسلمون يزيدون من ضغطهم وراح عدوهم يقاوم دون أن يتخلى عن مكانه، أو يتراجع،

وازدادت شدة المعركة، وقربت الشمس على المغيب، وانتهى اليوم الأول من أيام المعركة دون أن يتفوق جيش على الآخر. ولم يمنع الجيشين من استمرار القتال سوى الظلام الذي خيم على مكان القتال.

وفي اليوم التالي من المعركة تكررت الصورة نفسها، إذ هجم المسلمون على عدوهم هجومًا شديداً، وراحت جيادهم تطلق صوتها العالي، وهي تقبل على فرسان الأعداء، وراحت سيوف المسلمين تلمع وهي ترتفع ولكن أعداءهم كانوا ثابتين لا يتراجعون عن مكانهم، وهكذا ظلت المعركة تدور بالطريقة السابقة نفسها، وتنتهي على الحالة نفسها، عند حلول الظلام، لمدة سبعة أيام كاملة.

اليوم الثامن:

وحينما جاء اليوم الثامن من أيام المعركة هجم المسلمون على عدوهم هجمة رجل واحد، عازمين على أن يجعلوا لهذه المعركة الشديدة نهاية، ولم يتحمل عدوهم الذي ظل يتلقى هجوم المسلمين وبأسهم سبعة أيام متواصلة، لم يتحمل هذه الهجمة الصادقة، وبالفعل فتح المسلمون في صفوف الأعداء ثغرة ظهر لهم من خلالها النصر، كما يظهر نور الصبح من خلال الظلام.

المفاجأة

ولكن شارل مارتل الداهية، وقد علم أن الهزيمة سوف تكون من نصيب جيشه، راح يفكر بشدة فلم يجد غير حل واحد يتصدى به لجيش المسلمين، لقد علم بخبر الغنائم التي جُمعت في خيام خلف الصفوف، وعلم أن جيشه ذا العدد الكثيف والعدة القوية، الذي يفوق جيش المسلمين مرات ومرات، لن يستطيع أن يصمد أمام هذه الهجمة المخلصة من المسلمين أصحاب الرسالة والإيمان ماذا يفعل إذن، فكر وتذكر نصيحته لقواده وقساوسته من قبل إنها الدنيا.. إنها الغنائم التي جمعها المسلمون من فتوحاتهم السابقة والتي تركوها خلفهم في الخيام، فلو استطاع أن يشغلهم بها لتحقق مراده، وعلى الفور أمر شارل مارتل فرقة من جيشه بالهجوم على خيام الغنائم التي جعلها المسلمون خلف جيشهم.

اضطراب الصفوف:

وتحركت مجموعة كبيرة من جيش أوربا، واتجهت إلى خيام الغنائم فهجموا عليها، ووصل الخبر إلى جنود المسلمين، فلما علموا أن غنائمهم كادت تقع في أيدى أعدائهم، تراجع كثير منهم يريدون تخليص هذه الغنائم من أيديهم، فتفرقت بذلك الصفوف واختلفت الجموع المجاهدة،

وتحقق حينئذٍ لشارل مارتل ما يريد. ها هم المسلمون مشغولون بالدفاع عن نصيبهم من دنيا أصابوها، تركوا الجهاد لنجدة غنائمهم.. هجم شارل مارتل على جيش المسلمين المضطربين، وانقلب الحال، بعدما كان المسلمون منتصرين، صاروا المتقهقرين المنهزمين..

البطل:

صار المسلمون في ساحة المعركة في بواتييه في موقف شديد الصعوبة، أما عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي قائد الجيش الإسلامي فإنه لما رأى ما يحدث أسرع يحاول تنظيم الصفوف، ويسد الثغرات، والفتحات التي ظهرت في جيش المسلمين.. راح يعيد تنظيم جيش الإيمان على حصانه الذي اختلط بياض لونه بالسواد، راح القائد يروح ويجيء في سرعة شديدة، وحماسة، ولكن سهام الغدر لم تكن بعيدة، إن الذين لم يستطيعوا مقابلة هذا القائد المجاهد، ومبارزته وجهًا لوجه لم ييأسوا من التغلب عليه، ولذلك فقد انطلق سهم من جبان منهم، وراح يتجه بسرعة ليصيب عبدالرحمن الغافقي فيسقط من فوق حصانه ليستقر شهيداً وسط دمائه في ميدان المعركة.

الفصل الأخير
عند الصباح

الانسحاب:

وجاء الفصل الأخير من محاولة نشر المسلمين للإسلام في فرنسا، وعلى خيوط الشمس التي أراد السمح بن مالك الخولاني أن ينشرها هناك ومن ورائه خليفته عبدالرحمن الغافقي – يرحمهما الله – وجاء وقت اضطر فيه جيش المسلمين في الليل إلى الانسحاب، وعدم إكمال الخطة التي بدأها السمح والتي كان أبطالها يسعون من خلالها لفتح القسطنطينية، ولكن العناية الإلهية لم تختر هذا الوقت لتحقيق هذا النصر، والتي شاء الله تعالى أن تتحقق فيما بعد على يد القائد المسلم محمد الفاتح الذي ثأر في عام (١٤٥٣م) للسمح بن مالك الخولاني ولعبدالرحمن الغافقي، وأنعم الله عليه بدخول المدينة التي هي استنبول اليوم، فنشر دين الله فيها، وعلم أهلها أن الإسلام لا يثأر إلا من الظالمين، فعفا وسامح الكثيرين، واشتهر بحمد الله والتواضع، وجاء الصباح فوجد شارل مارتل أن المسلمين قد تركوا له ميدان المعركة، ولأنه شديد الجبن، فلم يستطع حتى أن يطاردهم ولو طاردهم لاستطاع أن يتغلب عليهم جميعًا، ولكنه خاف أن تكون حيلة منهم،

ولذلك فضل أن يبقى في مكانه مكتفيًا بما حققه.

الحزن:

ولف الكون كله موجة من الحزن على هزيمة المسلمين، في كل قرية وبلدة، ووصل إلى دار الخلافة، بل كان الحزن في كل بيت، وهو باقٍ في نفوس الأخيار من المسلمين حتى اليوم؛ لأن أولئك الذين حملوا مشاعل النور إلى فرنسا قد قوبلوا بالغدر، وهذا الحزن لم يصب قلوب المسلمين فقط بل إنه ازداد حتى في قلوب العقلاء من أهل أوربا الذين كانوا يرون في المسلمين المخلِّص لهم من ظلم الحكام، وتخبط الشعوب في بحر الظلمات، وها هو أحد الفرنسيين اليوم يعترف بذلك، وهو هنري دي شامْبُون مدير مجلة ريفي بارلمِنْتير الفرنسية يقول:

لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات العصور الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها، ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي.. نعم لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بُواتييه لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون.

إنه يعترف بأن جيش شارل مارتل الفرنسي مثله، يعترف بأنه كان جيشًا

همجيًّا لا يعرف نظام القتال، وهو يعرف أنه لولا هذه الهزيمة التي نالها جيش المسلمين لما استمر تخلف بلده ثمانية قرون كاملة، ولما وصلت إلى التخلف الذي قادها بعد ذلك إلى التعصب الديني القائم على أساس المذاهب.

أما المعركة فلقد أطلق عليها اسم بلاط الشهداء لكثرة الذين استشهدوا من المسلمين فيها وعلى رأسهم عبدالرحمن الغافقي... يرحمهم الله جميعًا.

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

حسن اختيار ٥

إعادة ترتيب الدولة الإسلامية ١٣

معركة جديدة ١٩

رحمة من عند الله ٢٥

موقف الأعداء ٣٥

عند الصباح ٥١

Obelisk
Printing & Packaging
Tel: (011) 225 1146